دونالد ترامب والحرب على الإسلام
محمد يوسف عدس

كثير من المسلمين يعتقدون خطأً أن الحرب على الإسلام في أمريكا والعالم توشك أن تبدأ على يد دونالد ترامب ، والصحيح أن الحرب قائمة على الإسلام منذ عهد بعيد ، ولكنَّها جولة جديدة أشبه بجولة جورج دبليو بوش التي ما زلنا نشهد تجليّاتها المدمِّرة في أفغانستان والعراق ، وامتداداتها -بعد الربيع العربي- في سوريّا واليمن وليبيا والسودان ؛ ولكنها ستكون أشد عنفًا وأبعد أثرًا وأوسع نطاقًا.. وستستخدم فيها أسلحة لم تكن لتخطر على بال إنسان..

ولن يكون هذا بسبب دونالد ترامب ؛ رغم أنه أكثر العنصريين الغربين صراحة في التعبير عن كراهيته للإسلام والمسلمين ، وأنه توعدهم بالإبادة.. على أكثر تقدير سيكون ترامب مجرد عنصر في مناخ عدواني جديد وسمة من سمات الجولة العدوانية القادمة .. إذ يجب أن نفهم أن ترامب وأمثاله من الرؤساء الأمريكيين قبله لا يملكون سلطة حقيقية ، وكل وظيفتهم أنهم [بصْمَجيَّة] يوقعون على الأوراق والقرارات التي يتم اتخاذها من جانب السلطة الحقيقية فيما أسميته منذ ١٤ عاما بـ[المؤسسة] التي تحكم من وراء ستار .. ووصفتُ الرئيس الأمريكي بأنه أشبه بـ"الجوكي" الذى ينخس حصان السباق ويحثه على المزيد من السرعة ليكسب السباق ويفوز بولاية ثانية ، وينال جائزته بعد انتهاء السباق..

وقلت أن هؤلاء الرؤساء يعلمون أن من ينحرف عن الطريق المرسوم له- مصيره القتل ، وكان آخر من تم اغتيالهم الرئيس جون فتْزجيرالد كنيدى سنة ١٩٦٤م ، وتبعه أخاه روبرت كنيدى الذى ترشّح لانتخابات الرئاسية من بعده وكان مغضوبًا عليه من [المؤسسة] فقُضِيَ عليه.

وقبلهما تم اغتيال ثلاثة رؤساء في التاريخ الأمريكي .. جميعهم لم يُعرف السبب الحقيقي لقتلهم سوى أنهم كانوا يعارضون هيمنة كبار اليهود في هيمنهم على المال والاقتصاد والصناعات الكبرى في أمريكا ، ولم يُعرف حقيقة الأشخاص الذين قدّمتهم أجهزة المخابرات باعتبارهم المتهمين بالاغتيال ؛ فقد تمت التحقيقات في إطار سرّي في أروقة المخابرات الأمريكية وهيمن عليها أصحاب النفوذ الاقتصادى الأكبر من اليهود الصهاينة ، وأقصد بالتحديد روكفلر وروتشايلد ..

وأضيف أن اغتيالات أصحاب الأفكار ذات التأثير الجماهيري الذى يُخشى منه- أيضًا قد تمت بنفس الأسلوب: مع أمثال الزعيم الزنجي مارتن لوثر كنج الذى كان يدعو لإنهاء التمييز العنصري ضد السود في أمريكا ، ومالكوم إكس وغيرهما.. وقد تم التعتيم على القتلة ؛ حيث سَجّل التحقيق: "إغلاق القضية والفاعل مجهول".. ولم يعرف الشعب الأمريكي -في كل هذه الجرائم- السبب الحقيقي وراءها ، ولا شاهد التحقيق مع المتهمين.

الآن فقط بدأ الكتاب العرب يتحدثون عن هذه الأحداث بوعْيٍ جديد ، أظن أننى كنت واحدًا من راوّده .. حيث أذكر أننى عندما بدأت البحث والكتابة عنها منذ خمسة عشرة عامًا لم يكن على الانترنت أثر عربي واحد ولا إشارة إليها ؛ فقد أخذ الجميع

التصريحات الرسمية باعتبارها حقائق ، بينما الأمر على خلاف هذا تمامًا .. وقد كتبت في هذا الموضوع عشرات المقالات وصدر لى فيه ثلاثة كتب نفدت طبعاتها جميعًا في وقت مبكر.. والآن أري أثر هذا في كتابات منشورة ، وليس فيها إشارة واحدة إلى المصدر ، لا يهمّ.. فقد ثبت لى الآن أن ما ورد فيها من حقائق وأفكار كانت له فاعلية ، وأنها قد وصلت إلى القراء واقتنع بها الكتّاب ، وبدأت تنعكس في كتاباتهم .. وهذه أعظم جائزة يطمح إليها أي كاتب مخلص لقضيته حريص على وصول رسالته للقُرّاء واقتناعهم بها.

مع هذه الخلفية الضرورية أود أن أنتقل إلى نقطة هامة في موضوع الحرب الأمريكية على الإسلام ، لنستكشف كيف ينظر المسئولون الأمريكيون إلى الإسلام، وبأي ميزان يزنون به أحكامهم عليه..؟ ، ولن تستطيع أن تحصل على هذه الرؤية من رجل غبي مثل ترامب ، لأنه لا يعبأ بتفسير مواقفه وأحكامه القطعية على الإسلام والمسلمين ، وكأنها بديهيات لا سبيل إلى مناقشتها .. وفى هذا الإطار أرجو أن أذكِّرَ القراء المتابعين بمقالة لى بعنوان "الحرب الأمريكية ليست على الإرهاب بل على الإسلام" نشرتها مجلة المختار الإسلامي سنة ٢٠٠٢م أي منذ ١٤ سنة .. وكان الكلام عن حرب الإرهاب بعد واقعة الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م هو شغل العالم الشاغل .. و كنتُ أحاول متابعة أحداث الحرب الأفغانية خلال نشرات الأخبار التي تبثها قناة الـ (بي بي سي) البريطانية عندما فوجئت بالمذيع يقدم لمحاضرة للرئيس الأمريكي السابق بل كلينتون بعنوان "النضال من أجل روح القرن الواحد والعشرين"..

كانت بالنسبة لى فرصة نادرة للإطلاع على فكر رجل مارس السياسة وهو في القمة .. وامتدت فترة رئاسته للولايات المتحدة ثمانية أعوام ، فلابد أنه اكتسب نوعا من الحكمة لم تتوفر في خليفته "جورج دبليو بوش".. علاوة على أنه كان معنيًّا بمحادثات السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، على النقيض من بوش الذي نأى بنفسه عن القضية الفلسطينية، بل ترك الحبل على غاربه لشارون كي يعالجها بأسلوبه الخاص الذي عرفناه.

يقول كلينتون: "في مثل هذا اليوم من عام مضى قلت لكم: لقد رأينا أن الفقر المدقع يغذّي الصراع ، وكيف أنه يولد الإرهاب، ويعزز الإرهابيين ومن يحرّضون على الحقد والكراهية الدينية والعرقية، ورأينا كيف يلهب الفقر نار الرفض العنيف للنظام الاقتصادي والاجتماعي الذي يقوم عليه مستقبلنا".. يقصد كلينتون مستقبل الغرب الغني.. في نظر كلينتون إذن: أن الصراع ودوافع الإرهاب الموجّه ضد الغرب تكمن في الفقر المدقع الذي يغذّي الحقد والكراهية الدينية والعرقية، ويقف وراء الرفض الشرس للحضارة الغربية.. ثم يمضي في محاضرته ليكشف لمستمعيه عما يعتقد أنه حقيقة الأفكار والمعتقدات التي تدور في عقول من وَصَمَهُم بالإرهاب ..

تحدث بِلْ كلينتون عن تاريخ الإرهاب في العالم منذ الحروب الصليبية حتى اليوم.. وأبعاد هذا الإرهاب وتغلغله في المجتمعات الحديثة ..
ولأنه كان يتحدث لفئة من االمثقفين الغربيين [وهو واحد منهم] يجهلون كل شيء عن الحروب الصليبية إلا ماتعرضه الكتب المعادية للإسلام تلاحظ في كلامه عن الحروب الصليبية أنه لم يذكر شيئًا عن المذابح التي تعرض لها المسلمون ولا الدماء التي سالت أنهارًا في المسجد الأقصى على أيدي الصليبيين، ولا ورد اسم المسجد في حديثه ، وإنما اكتفى بذكر مذبحة لليهود في أحد المعابد، وفي هذا تحريف بيّن للتاريخ ومحاولة مفضوحة لطمس الحقائق التاريخية الموثقة عن الحروب الصليبية.

من أهم ماتطرق إليه بل كلينتون في محاضرته حديثه عن القضية الفلسطينية وجهوده في الوساطة بين الإسرائيليين والفلسطينيين لتحقيق السلام ، يقول: إنه قد توصّل إلى خطة لتحقيق السلام في محادثات "كامب ديفيد" الثانية ولكن الفلسطينيين هم الذين رفضوها.. وهكذا يمضي كلينتون في سلسلة أكاذيبه ، التي بدأها بتزييف التاريخ والآن يحاول تزييف الحقائق السياسية .. ولا ريب فهو لم يكن مؤرخًا منصفًا نزيهًا ولن يكون سياسيًّا محايدًا متجرِّدا من الهوى والعنصرية .

لقد وصف خطته بأنها خطة عادلة وأنها تضمن قيام دولة فلسطينية وينسب فشل هذه الخطة إلى الفلسطينيين، والحقيقة التي نعرفها هي أنها لم تكن خطة عادلة وأن سبب فشلها يكمن في الشروط الخرافية التي وضعتها إسرائيل في مسألة القدس والتعنت الإسرائيلي بصفة عامة.
كان كلينتون شديد الحرص على أن ينجح في الوصول إلى تسوية سلمية بأي شكل قبل انتهاء فترة رئاسته.. ربما تُحسب له في التاريخ الأمريكي لتغطِّي على نقطة سوداء في صفحته ، تتصل بفضيحته المشهورة مع " مونيكا لوينسكي" ، ولعله كان يتوقع أيضًا أن يفوز بجائزة نوبل للسلام يختم بها حياته السياسية المضطربة.

يعود بل كلينتون في نهاية المطاف إلى النقطة الرئيسية التي استهل بها محاضرته وجعلها محوره الأساسي، وهي أن الصراع بين الغرب وبين الإرهاب هو صراع فكري في أساسه بين مجتمعين مختلفين في فهمهما للحقيقة ، ولمعنى الاختلاف في الرأي، وفي فهمهما لقيمة الحياة، وما ينبغي أن يكون عليه المجتمع في تركيبته الإنسانية، وما فيه من تنوع وتعدد في الأديان والأعراق والاتجاهات الفكرية.. وتطبيقاً لهذه المنظومة على الواقع يؤكد كلينتون أن الاختلاف ما بين الولايات المتحدة من جهة وبين طالبان وبن لادن وقاعدته هو مجرد اختلاف في وجهة النظر.. يقول:

"مثل جميع المتعصبين في التاريخ يؤمنون بأنهم يملكون الحقيقة (كل الحقيقة) فإذا أنت شاركتهم فيها تصبح لحياتك قيمة وإن لم تشاركهم تصبح هدفًا مشروعًا للإبادة.. إنهم يعتقدون أنه لكي تكون عضوًا في مجتمعهم فلابد أن تصبح مثلهم.. أن تفكر مثلهم وتتصرف مثلهم".

يقول كلينتون: إن الذين يريدون قتلنا بسبب ما بيننا وبينهم من اختلاف فإنهم يفعلون ذلك لأنهم يعتقدون أن حياتهم لا أهمية لها إلا بمقدار اختلافهم عن الآخرين...!

وأقول: لا عجب فلقد ظهر في بلاد المسلمين بعد كلينتون بما يقرب من عقدين- قائد محسوب على المسلمين يعزز هذه الفكرة الجهنمية ، ويعممها على جميع المسلمين ويروّج لها في العالم ، ليكتسب تعاطف أعداء المسلمين ومساندتهم لاستبداده وطغيانه ، ويضرب المثل لدونالد ترامب ويمهد له الطريق بقتل وحرق المسلمين في مصر ، وهدم منازلهم ومساجدهم وتشريدهم من أرضهم ، وبناء السجون لإيوائهم.

السبب الرئيسي للصراع إذن – كما يراه بل كلينتون وقائد الانقلاب العسكري في مصر - هو الإرهاب ، والإرهاب نابع عند قائد الانقلاب من نصوص دينية تحض عليه، وعند بل كلينتون نابع من ثقافة متخلفة لأنها ولدت وترعرعت في بيئات تعاني من الفقر المدقع ومن الجهل.. وهو في كل هذا يتفق مع جورج دبليو بوش بوضوح تام في تصريحاته عندما أشار إلى أسباب الهجوم الإرهابي على برج التجارة الدولي والبنتاجون في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م فقال: إنها الكراهية والحقد على حضارتنا وديمقراطيتنا ورخائنا.

** سوف نفترض أن اتهامات بل كلينتون وجورج دبليو بوش لبن لادن وأتباعه في الهجوم على برجيْ التجارة العالمية والبنتاجون صحيحة ، علما بأن التحقيقات التي جرت فيما بعد ، تلقى بظلال كثيفة من الشك على هذه الواقعة ، وتشير بأصابع الاتهام إلى المخابرات الأمريكية والموساد الإسرائيلية ، وتكشف عن إشتراك الإدارة الأمريكية إن لم يكن بالعمل المباشر فبالتواطؤ- في كل مرحلة من مراحل هذه الجريمة النَّكراء.

ولكننا نواجَهُ بسؤال خطير: إذا كان صحيحًا أن الدافع وراء الهجوم على البنتاجون والبرج هو الكراهية حقًا، فهل هذه الكراهية موجهة إلى حضارة أمريكا وديمقراطيتها ورخائها .. أم إلى سياستها الخارجية العدوانية وانحيازها الظالم وكيْلها بمكيالين في كل ما يتعلق بقضايا الشرق الأوسط..!؟ وعلى الأخص القضية الفلسطينية التي تنحاز فيها أمريكا إلى المعتدى الإسرائيلي الغاصب ، ضد الضحايا الفلسطينيين المحاصرين .. كما تنحاز للدكتاتوريات المستبدة الحاكمة في بلاد العرب ضد الشعوب المقهورة والمستعبدة.

أما السؤال الآخر الذي لا يقل أهمية - فهو يتعلق بهاجس كان يراودني وأصبح الآن واقعا ملموسا: أن الولايات المتحدة وقد خرجت بقوتها العسكرية الرهيبة وعلى قائمة أهدافها تدمير الحركات الإسلامية، وحركات المقاومة الوطنية في بلاد المسلمين : فهل تمضي الولايات المتحدة في تنفيذ مخططاتها في تدمير كل ما تملكه البلاد المسلمة من قدرات على الدفاع والمقاومة وفرض حالة الاستسلام الكامل عليها عسكريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا..؟

أكاد أرى في هذا الصدد مؤشرات خطيرة تفضحها تصريحات الرئيس بوش نفسه عندما وصف حربه على الإرهاب بأنها حملة صليبية ، والحرب الصليبية كما نعرف من التاريخ كانت موجهة ضد المسلمين.

لقد امتدت الحملة الإعلامية ضد الإسلام عبر المحيط الأطلسي إلى أوروبا حيث أعلن بيرلسكوني رئيس وزراء إيطاليا: أن الحضارة الغربية أسمى وأفضل من الإسلام.. ويسود في الخطاب السياسي والإعلامي عبارات مثل الإرهاب الإسلامي والفاشية الإسلامية.

صحيح أن بوش وبيرلسكوني اعتذرا لاحقًا عن هذه التصريحات، ولكنه اعتذار يدخل في دائرة الدبلوماسية، ولا يعبر عن حقيقة المشاعر، خصوصًا وأن بوش كان يسعى في ذلك الوقت إلى جذب الأنظمة المسلمة إلى جانبه في تحالف يستخدمه فى الحرب على أفغانستان والعراق..

أما الآن فإن وجود ترامب فى البيت الأبيض ومعه بطانة من أشد اليهود الصهاينة تعصُّبا- فلم يعد هناك مجال للاعتذار الكاذب ، فإن اللعب أصبح على المكشوف .. وأصبح العمل ضد الشعوب العربية والمسلمة ، أمرًا مفروغًا منه .. يعززه التلاحم بين الإدارة الأمريكية وإسرائيل للاشتراك في الأهداف والمصالح ، وبين القيادة العسكرية الحاكمة في مصر، وكل من دعّمها وتآمر معها من حُكام العرب للقضاء على الثورة وعلى الإسلام والمسلمين.. ظنًّا منهم -لغباء موروث- أن هذا سيدعّم سلطانهم واستبدادهم ، ويطيل في أمد سيطرتهم على شعوبهم وقمعها .. ولم يدركوا أنهم مجرد أدوات استخدامية سيتخلّص منها السيد الأمريكي بعد انتهاء مهمتها ، كما تخلّص من أمثالهم من قبل.. كنسهم التاريخ في مزابل الخونة والأتباع الذين باعوا شعوبهم وبلادهم لأعداء الأمة .

myades34@gmail..com

(نشر المقال بجريدة الشعب في أول ديسمبر ٢٠١٦م)